العرب
الإثنين 2020/01/06
السنة 42 العدد 11578

حماس والجهاد تتألمان لغياب سليماني

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

نعتْ بعض القوى العربية مقتل قاسم سليماني قائد فيلق القدس الإيراني. وبدا نعي كلّ من حركتي حماس والجهاد الفلسطينيتين لافتا للأنظار، من حيث المبالغة في التقدير والتعاطف، وكلمات التنديد والمواساة، بما يوحي أن يديه كانتا بيضاء معهما، في وقت أتّهم فيه بتلطيخهما بدماء ضحايا عديدين في المنطقة العربية.

يعيد الألم السياسي والأمني على مصرع سليماني وتطييب خواطر المسؤولين وتلقي العزاء على روحه من خلال سرادق أقيم في قطاع غزة، السبت، التذكير بأن له مكانة خاصة على الساحة الفلسطينية، وكل ما قيل عن تحجيم الروابط المعنوية والمادية مع إيران في هذه المرحلة انصبّ غرضه في الحفاظ على ما تبقى من تهدئة مع إسرائيل، وعدم استفزاز الدول العربية المتضررة من تنامي العلاقة مع طهران.

يؤدي رحيل سليماني في هذه الأجواء إلى خلط الكثير من الأوراق في المنطقة. فمرحلة ما بعد استهدافه سوف تكون مختلفة عما كان سائدا قبلها بوقت قصير، حيث بدت العلاقة القوية التي شيدها مع بعض الحركات النشطة في المنطقة محل رفض من قبل قوى إيرانية رأت أنها ذات تكلفة اقتصادية عالية وطالبت بفرملتها.

تعمدت بعض الحركات آنذاك، وفي مقدمتها حماس والجهاد، توصيل رسائل سياسية بأن العلاقة مع طهران أصبحت منضبطة، ولن تتجاهل التطوّرات الإقليمية، وتضع في حسبانها المواقف العربية الرافضة للتمدد الإيراني، وجملة الإجراءات الدولية التي تبنت تصورات مضادة لسياسات طهران، خاصة في العواصم التي تفاخر قاسم سليماني بأن بلاده لها حضور طاغ بها، وهي بغداد ودمشق وبيروت وصنعاء.

حاولت حركة الجهاد الإسلامي في ظل أمينها العام الجديد، زياد نخالة، أن تبدي قدرا من المرونة في محيطها العربي، ومداراة علاقتها الوثيقة مع إيران، الأمر الذي فسره البعض بأنه تراجع في الانسجام الكبير بين الطرفين، والجهاد في سبيلها للانخراط في اللعبة السياسية وفقا للقواعد التي يجري تحديدها في حالة غياب تأثير إيران.

وجد هذا الاعتقاد تجاوبا في محيط بعض الدوائر السياسية التي طربت للحديث عن كسر في علاقة الجهاد بطهران خلال عهد نخالة، وانتهاء مرحلة الوئام التي سادت مع أمين الحركة السابق، رمضان عبدالله شلح، ما يعني أن هناك توازنات جديدة على الساحة الفلسطينية. وانخفض مستوى العلاقات المعلنة مع تصاعد حدة الرفض لكثير من توجهات إيران في المنطقة.

وجدت سرايا القدس، الجناح العسكري لحركة الجهاد، والتي لم تنتقم لمصرع قائدها الميداني بهاء أبوالعطا في غزة بمعرفة قوات الاحتلال الإسرائيلي، فرصة مع مقتل سليماني عبر طائرة أميركية مسيرة في العراق، للربط بين الجهتين المسؤولتين عن مصرعهما، ما يتيح ذريعة لعدم مبارحة معسكر إيران وتخطي فترة الخمول.

كذلك قفزت كتائب شهداء عزالدين القسام، الجناح العسكري لحماس، على ظهر حادث سليماني واستثمرته سياسيا، في وقت يقوم فيه رئيس مكتبها السياسي إسماعيل هنية، بجولة في المنطقة أوصلته إلى مصر وتركيا وقطر، ومرجح أن يزور إيران ويكسر تحفظا عربيا على أن تشمل جولته الراهنة هذه المحطة، فقد يجد في مصرع قائد فيلق القدس مبررا منطقيا لزيارة مؤجلة لطهران.

ليست العبرة في الزيارة بحد ذاتها، لكن ما تعنيه من مضامين هو الأهم، حيث تستعيد حركة حماس زخم علاقتها مع طهران وتقترب أكثر من محورها الذي يضم الدوحة وأنقرة، بينما هي تتقدم سريعا نحو تثبيت التهدئة مع إسرائيل والتباحث مع وسطاء بشأن هدنة طويلة الأجل معها.

تمنح هذه المكونات فرصة لعودة إيران إلى الساحة الفلسطينية، خاصة إذا كان من بين أهدافها توجيه ضربة عسكرية إلى إسرائيل ذاتها، ردا على مصرع سليماني بمعرفة القوات الأميركية، كنوع من الرغبة في تداخل الخيوط أو ما يسمى بـ"الفرار إلى الأمام"، وهي تعلم أن الرئيس الأميركي دونالد ترامب تعمّد تنحية إسرائيل وعدم اقترابها مباشرة من عملية اغتيال قاسم سليماني، وأبومهدي المهندس نائب رئيس الحشد الشعبي بالعراق.

قدم التفاعل السياسي من جانب حماس والجهاد مع طهران رسالة استقبلتها الأخيرة ليس لنفي أنها صانعة للميليشيات الشيعية في المنطقة، بل حاضنة لحركات وجماعات سنية، لاسيما أن تنظيم الإخوان المسلمين ذرف الدموع على مصرع سليماني. وربما تذهب محاولات من يطالبون إيران برفع يدها عن العراق ولبنان أدراج الرياح، لأنها تسعى نحو استغلال الحادث سياسيا وأمنيا.

نجحت طهران في توظيف بعض المواقف الحركية والشعبية الرافضة لاستهداف سليماني في الإيحاء باستعادة دورها كمحركة للأحداث، فقد منحتها العملية وقتا لالتقاط الأنفاس، فهي هدية لتحويل الأنظار في الوقت الراهن على الأقل بعيدا عن تدخلاتها السافرة في العراق ولبنان.

كما أنها أداة لتقليل حجم اتهامها بتسخين الأوضاع في البلدين عبر أذرعها الأمنية، فالبوصلة بدأت تتجه نحو واشنطن، ويتم النفخ في هذه المسألة لإحلال أزمة مكان أخرى، وتصبح الولايات المتحدة الأزمة الحقيقية في المنطقة وليست إيران.

مهما كان ردّ فعل طهران للانتقام من واشنطن، في العراق أو سوريا أو لبنان أو قطاع غزة أو حتى عن طريق الحوثيين في اليمن، فسوف تحرص على استمرار توجهات سليماني وفيلقه، حيث قام الرجل بهندسة جزء كبير من ممارسات إيران ورسْم جانب من سياساتها في المنطقة، من خلال توزيع الأدوار على الميليشيات والعناصر الحركية، وبينها حماس والجهاد.

تتصور حركة حماس، خطأ، أن براغماتيتها الطاغية تمكنها من التحصل على استفادة أحادية من دون تقديم مقابل معلوم لطهران، لأن الأخيرة تبحث عن ردّ مناسب على الولايات المتحدة، ويصعب على حماس أن تحصل على مكان خارج اللحظة الإيرانية، طالما ارتضت أن تكون قريبة بدرجة واضحة، حتى لو كان هذا الاقتراب من خلال سرادق عزاء أو عبارات مواساة، فهي تنطوي على دلالات كافية في المحتوى النهائي.

تعتقد حركة الجهاد أن لحظة المواجهة حانت مع الولايات المتحدة وإسرائيل، وانتهى عهد المناورات، بالتالي قد يكون لها دور في هذه الأطر يعيد العافية السابقة لسلاح المقاومة، وهي تجيد هذه اللعبة أكثر من غيرها، ولم تستطع التكيف مع المستجدات التي فرضت عليها التصرف بواقعية سياسية لم تعهدها.

إذا كان مصرع سليماني له تداعيات كبيرة على إيران في الداخل والخارج، فإن ارتداداته لن تكون غائبة عن الجماعات والميليشيات التي نسج معها روابط عسكرية خفية ومتشابكة، فإما أن تدور في فلك من يخلفه، وإما تعاني من خلل وعدم اتزان، بعد أن اعتادت التعاطي مع كثير من الأزمات تحت مظلته.

تبدو المنطقة أمام لحظة فرز إقليمي، قد يعيد إلى إيران ترميم علاقاتها أو تتدحرج بعيدا، وتضطر إلى تبني نهج مغاير يقودها إلى الانكفاء. وهو ما يصعب قبوله من قيادتها وحلفائها المؤدلجين، لأنه يحمل عوامل فناء لمشروع يقوم على التوسع والتمدد عن طريق السلاح.

قد يكون تألم حماس والجهاد على رحيل قائد فيلق القدس أداة من أداوت الحرص على الوصل مع طهران، وخوفا من فراغ أو مصير مجهول. لذلك يمكن فهم الحسرة السياسية كاستباق لترتيبات مرحلة ما بعد سليماني، والاستعداد للتمسك بالحفاظ على نهجه كي لا تصبح الحركتان لقمة سائغة لخصومهما وهما بعيدتان عن طهران.

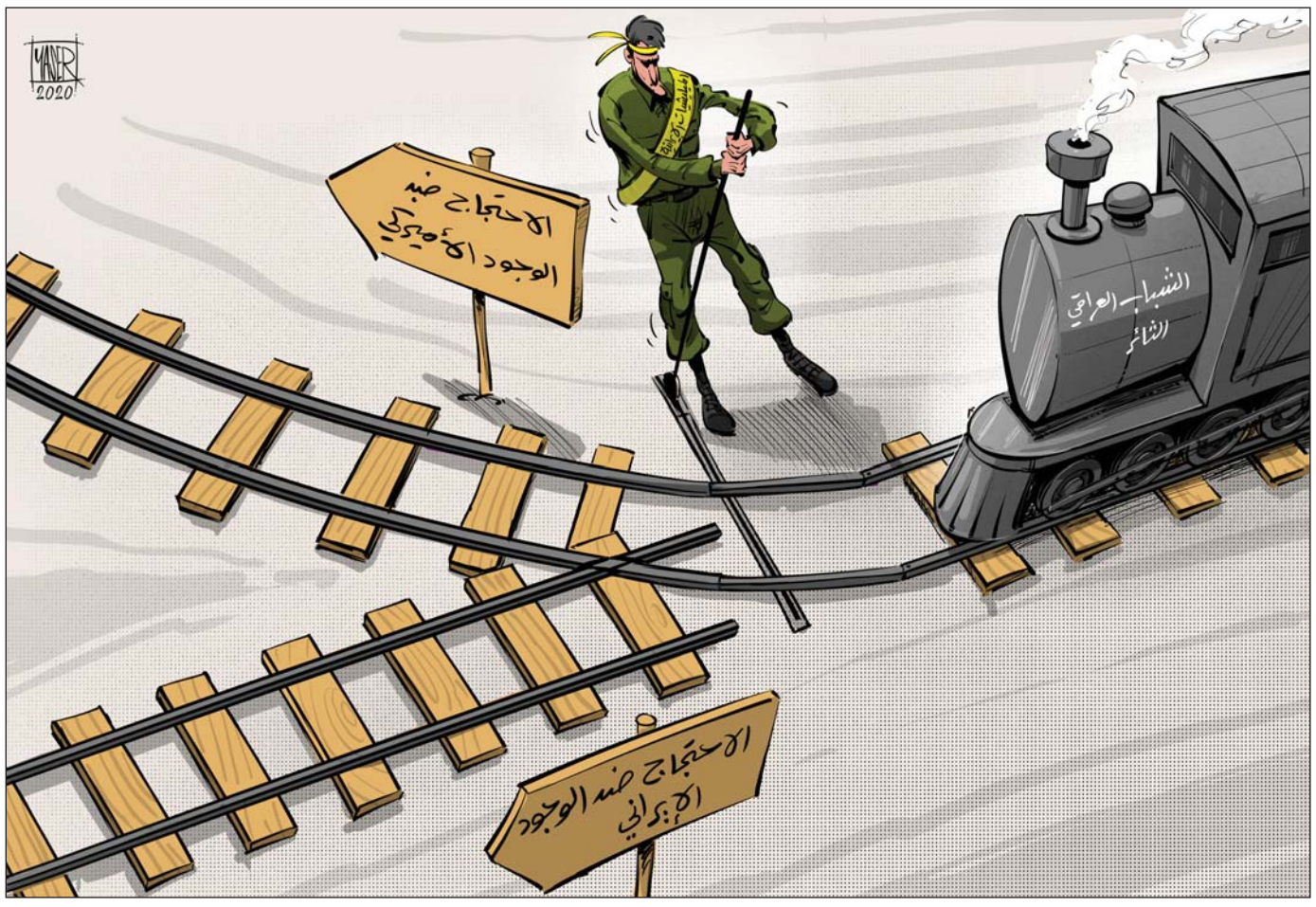

مقتل سليماني أميركيا

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

متوقع وعادي وطبيعي أن يغضب الوليُ الفقيه، وأن يهدد قادة حرسه الثوري أميركا بالانتقام الشديد. ومتوقع أيضا أن يملؤوا شوارع طهران بالمسيرات الباكية اللاطمة الهاتفة "الموت لترامب، الموت لأميركا".

ومتوقع كذلك أن ينضم قادة الميليشيات العراقية وحكومة عادل عبدالمهدي إلى مواكب المستنكرين والمنددين والمهددين، رغم أن أحدا من كل هؤلاء، جميعا، لن يفعل شيئا ذا قيمة إيذائية حقيقية بالقواعد والمؤسسات والشخصيات الأميركية في العراق والمنطقة، وذلك لأنهم جميعا فهموا أن الرئيس الأميركي دونالد ترامب غير باراك أوباما، وأن زمن التهديدات الكلامية والتحذيرات الدبلوماسية عبر الأطراف الثالثة الوسيطة قد انتهى، وحل محله زمن الضرب الموجع، وربما المميت، ودون انتظار، ليس لحفظ هيبة الدولة العظمى وسمعتها فقط، بل لإرضاء الداخل الأميركي الذي يحتاج إليه أي سياسي وأي حزب أو رئيس.

ولعل أكبر الأخطاء التي دأب النظام الإيراني على ارتكابها، وعلى تكرار ارتكابها، قبل مقتل قاسم سليماني، هو اعتقاده بأن استفزازاته وتحرشاته المزعجة سوف تحرج ترامب داخليا، وتظهره أمام ناخبيه رئيسا ضعيفا غير قادر على ردّ الإهانة، وبالتالي فإنه بها سوف يعين خصومه الديمقراطيين على الانقضاض عليه وإسقاطه، وإعادة الليونة الديمقراطية السابقة معه إلى سابق عهدها.

ولكن المقيم في الولايات المتحدة القادر على مخالطة المواطنين الأميركيين العاديين، والإعلاميين والسياسيين أيضا، والذي يرصد أجهزة الإعلام الكبيرة، خصوصا تلك التي تعودت على البحث عن الصغيرة والكبيرة من أخطاء ترامب وشطحاته للتشهير به وتسخيفه، ويلاحظ تريثها وحذرها وهي تستعرض تفاصيل الضربة الأخيرة، والذي يطّلع على ما تقوله وتكتبه أجهزة الإعلام المحلية التي تصدر في مدن وأحياء صغيرة، ويقيس مواقفها من عملية مطار بغداد، يلمس حقيقة التغيير الذي أحدثه مقتل سليماني في المزاج الأميركي العام، ويدرك حجم الخدمة التي قدمها الولي الفقيه الإيراني للرئيس الأميركي، وحرسُه الثوري، وقاسم سليماني، بشكل خاص، ومدى الضرر الذي ألحقه بالديمقراطيين.

فعلى طول السلسلة المتواصلة من التجاوزات الإيرانية في الخليج وسوريا والعراق، ظل المواطن الأميركي، سواء المستقل أو المنتمي إلى أحد الحزبين، غير شاعر كثيرا بأن كرامة وطنه وأمته تتعرض للإهانة، بقدر ما كان يعتبرها مشاكسات بين إيران وخصومها العرب لا علاقة له بها، ولا على الرئيس الأميركي وإدارته أن يتورط في الرد عليها بهجمات قد تفضي إلى مصادمات عسكرية واسعة لا ضرورة لها ما دامت في حدودها المحلية البعيدة عن المصالح الأميركية الحيوية المباشرة.

ولكن القصف الصاروخي الذي أقدمت عليه ميليشيا حزب الله العراقي على القاعدة الأميركية في كركوك، ومقتل الأميركي المتعاقد المدني والآخر العسكري، سواء تم بأوامر مباشرة من المرشد الأعلى مباشرة، أو كان تصرفا ذاتيا من قادة الميليشيا، ولكن بأوامر سليماني، قد أشعل الغيرة الوطنية والغضب القومي في نفوس الأميركيين المعروفين بالتعصب الشديد لهيبة دولتهم، وجعلهم أكثر ميلا إلى تأييد عمل انتقامي عسكري رادع يمنع إيران ووكلاءها من معاودة التحرش مجددا.

والمفاجأة الحقيقية كانت أن العملية الانتقامية التي أمر ترامب بشنها على قواعد حزب الله ومعسكراته في سوريا والعراق، وقتله العشرات من قادته الميدانيين وأفراده أيقظ الشعور الوطني الأميركي لدى الأغلبية العظمى من الأميركيين وأنعش فيهم الزهو بالانتصار والقوة والجبروت.

ثم جاءت محاصرة السفارة الأميركية في بغداد، وشاهَد الأميركيون احتراق بعض جدران أسوارها، وتكسير زجاج نوافذها، وسمعوا هتافات المهاجمين المعادية المهينة الصريحة لتعطي ترامب تفويضا شعبيا بالرد.

ويجمع الكتاب والمحللون والمعلقون الأميركيون على أن ترامب، بالعملية الاقتحامية المباغتة التي اصطاد بها قاسم سليماني الذي يعتبره الأميركيون أخطر قادة الحرس الثوري، وأكثرهم دموية وعداء لأميركا، والمسؤول الأول عن كل الخسائر الأميركية في المنطقة والعالم، على مدى العشرات من السنين، خصوصا في سوريا والعراق، أراد أن يُفهم النظام الإيراني أنه استبدل سياسة الانتقام من الحواشي والوكلاء بسياسة استهداف الرؤوس الكبيرة في النظام نفسه.

الخدمة التي قدمتها الحماقة الإيرانية الأخيرة لترامب لا تقدر بثمن، فقد قربته، أكثر من أي وقت مضى وأكثر من أي مرشح رئاسي آخر، ليعود إلى سابق عهده أكثر حماسة وتصميما على خدمة إسرائيل وخنق نظام الولي الفقيه

وفور إذاعة أخبار العملية تعالت أصوات المباركة والإشادة والتأييد لترامب، وراح كثيرون يميلون إلى اعتباره أكثر الرؤساء الأميركيين، بعد جون كينيدي ورونالد ريغان وجورج بوش الأب، جرأة وهيبة.

ولعل أهم ما حصل عليه ترامب من صواريخ حزب الله العراقي، ومن اغتيال قاسم سليماني وأبومهدي المهندس هو الحرج الذي سببه للديمقراطيين.

فزعيمة الأغلبية الديمقراطية في مجلس النواب، نانسي بيلوسي، مثلا، في تعليقها على العملية، وهي أعدى أعداء ترامب، لم تجرؤ على تسخيف ما قام به كعادتها، بل دعت فقط إلى التهدئة، وأبدت مخاوفها من النتائج المترتبة على التصعيد، وعتبت عليه لأنه لم يستشر الكونغرس بشأن استخدام القوة العسكرية ضد إيران.

وقد ردّ البيت الأبيض على ذلك بالقول إن ما قام به الرئيس هو إجراء عاجل وضروري لحماية أرواح المواطنين الأميركيين، وللدفاع عن الممتلكات الأميركية، ضمن صلاحياته كرئيس، ولا ينبغي له أن يطلب موافقة الكونغرس إلا في حالة إعلان حرب شاملة.

وحين تُضطر شبكاتٌ تلفزيونية مهمة من وزن سي.أن.أن التي لم تُخفِ ولم تخفف عداءها المبدئي لترامب إلى أن تستعرض عملية مطار بغداد باهتمام أقرب إلى التأييد الخجول مراعاة لمزاج الشارع الانتخابي العام، فإن ذلك دليل واضح على أن إيران وقعت في شرّ أعمالها، وأخطأت الحساب.

ويذكر أن عددا من نواب وشيوخ جمهوريين وديمقراطيين بارزين أعلنوا تأييدهم للعملية، متوافقين مع الإجماع الشعبي العام المطالب بالمزيد من الضربات الموجعة إذا ما كررت إيران محاولاتها من جديد.

وثمة شيء آخر مهم جدير بالملاحظة وهو أن الجمعيات الإسلامية والعربية الأميركية والصحف وإذاعات اللبنانيين والعراقيين واللبنانيين واليمنيين المعروفة بعدائها لترامب وبولائها لإيران قد التزمت الصمت واكتفى أغلبُها بنشر الخبر دون تنديد ولا تخوين ولا شعارات. وتفسير ذلك أن المزاج الشعبي الأميركي العام كان له فعل السحر على ما يبدو.

والخسارة الكبرى الأخرى التي ألحقتها إيران بالديمقراطيين والمكسب الأكبر الذي تحقق للجمهوريين، ولترامب شخصيا، هو أن كثيرين من الأميركيين أصبحوا، بعد عملية قتل قاسم سليماني، يتحدثون عن ضعف الرئيس الديمقراطي السابق باراك أوباما ونائبه المرشح الديمقراطي الحالي للرئاسة، ويحملونهما مسؤولية التغوّل الإيراني، وما جره من أضرار على أميركا وحلفائها، وعلى أمن المواطن الأميركي في الخارج.

بعبارة أخرى إن الخدمة التي قدمتها الحماقة الإيرانية الأخيرة لترامب لا تقدر بثمن، فقد قربته، أكثر من أي وقت مضى، وأكثر من أي مرشح رئاسي آخر، ليعود إلى سابق عهده أكثر حماسا وتصميما على خدمة إسرائيل وخنق نظام الولي الفقيه.